مجلـــــة السعيد للعلـــــوم الإنســـانيـــة والتطبيقية
Al-Saeed Journal of Humanities and Applied Sciences
ISSN: 2616 - 6305
https://alsaeeduni.net/colleges/research-and-strategic/2017-03-10-08-03-59

دراسة عن
صفحات منسية من نضالات أبناء المقاطرة

الباحث/ بلال محمود عبدالوهاب الطيب
صحفي وباحث في التاريخ اليمني
مدير إدارة التحقيقيات الصحفية في
صحيفة الجمهورية الرسمية ـ تعز

تاريخ تسليم البحث 25/11/2021. تاريخ قبوله للنشر 28/12/2021.

دراسة عن
صفحات منسية من نضالات أبناء المقاطرة

الباحث/ بلال محمود عبدالوهاب الطيب
صحفي وباحث في التاريخ اليمني
مدير إدارة التحقيقيات الصحفية في
صحيفة الجمهورية الرسمية ـ تعز

المُلخص

في الوقت الذي سَقطت فيه مَناطق لواء تعز بيد قوات الإمام يحيى حميد الدين (١٨٦٩ – ١٩٤٨م) تباعًا، قاومت المَقاطرة وقلعتها الحصينة ذلك التوغل، وسجلت صفحات ساطعة من النضال بلا مُساومة، وهي الصفحات التي كَرَّس الباحث جُهدة لكشفها، بأسلوب سردي مُكثف، ومُختزل، مُعتمدًا على عشرات المَراجع التي وثقت لتاريخ تلك الحقبة، غير شهادات أحفاد بعض من عايشوها.

ابتدأ الباحث دراسته باستعراض المُقدمات التي مَهدت لانتفاضة أبناء المقاطرة، وغيرهم، ناثرًا تفاصيل صمودهم الأسطوري، وكيف استغلوا تضاريس بلادهم الوعرة في مُقاومة القوات الإمامية، وكيف صمدوا على مدى عامين في وجه تلك القوات المَسنودة بالمدافع، وكيف تسببت خيانة أحد رجالات الدين في هزيمتهم، وكيف فضل بعضم الموت على الأسر، وكيف اقتيد ٢٥٠ منهم إلى صنعاء، وهم يحملون رؤوس قتلاهم، في رحلة مُذلة استغرقت شهرًا كاملًا.

وبما أنَّ القبيطة مُجاورة للمقاطرة، وتاريخهما مُشترك، فقد عَرَّج الباحث أيضًا على صفحة منسية من تاريخ تلك المنطقة، واستعرض يوميات مُقاومة أبنائها للقوات الإمامية التي اجتاحت بعد سقوط قلعة المقاطرة بلادهم، وكيف وقف أبناء الصبيحة والحواشب إلى جانبهم، وكيف مَارس الإماميون في تلك المناطق جرائم حرب شنيعة، وكيف أوقفت الطائرات الإنجليزية الزحف الإمامي نحو الجنوب.

الباحث كشف أيضًا أنَّ مُقاومة أبناء المقاطرة للتواجد الإمامي لم تتوقف عند حدود الانتفاضة السابق ذكرها، فقد أدى الظلم الذي مَارسه الإماميون في حقهم، إلى بروز شخصية حميد الدين الخزفار من بين صفوفهم، الفقيه الصوفي العائد، الذي وقف في وجه ذلك الظلم، وعراه بموضوعية، وخسر لأجل أهدافه المُثلى حياته.

واختتم الباحث دراسته بالتعريج على صفحة مُهمة من تاريخ تعز النضالي، والتي لم تكن في

الأصل إلا امتدادًا لانتفاضة المقاطرة، وإنْ بصورة مُغايرة؛ فقد سيطرت عُقدة الذنب على عدد من المشايخ الذين ساهموا – بطريقة مُباشرة أو غير مُباشرة – في إخماد تلك الانتفاضة، وبدأوا يفكرون جديًا في استقلال تعز، وإب، وأسسوا لأجل ذلك أول كيان مُعارض لحكم الإمامة، أسموه (جمعية المشايخ)، إلا أنَّ أمرهم افتضح مُبكرًا، ودفعوا ثمن ذلك حياتهم.

A study about
Forgotten pages of the struggles of the sons of Al-Maqatara

Bilal Mahmoud Abdel-Wahhab Al-Tayeb
Journalist and researcher in Yemeni history
Director of the Press Investigation Department
at Al-Jumhuriya newspaper – Taiz

Abstract

At the time when the territories of the Sanjak (district) of Taiz fell to the forces of Imam Yahya Hamid al-Din (1869-1948) successively, al-Maqatrah and its fortified fortress resisted that incursion and recorded shining pages of struggle without compromise. Hence the researcher devoted his efforts to reveal that struggle, in an intense and succinct narrative style, relying on dozens of references that documented the history of that era, besides the testimonies of the descendants of some of those who lived through it.

The researcher began his study by reviewing the introductions that paved the way for the uprising of the sons of al-Maqatirah, and others, disseminating the details of their legendary steadfastness, how they preyed on the rugged terrain of their country in resisting the Imami forces. Furthermore, the researcher unfurls how the revolutionaries withstood for two years in the face of those forces supported by cannons, how the betrayal of a cleric caused their defeat and how some of them preferred death to captivity and how 250 of them were taken to Sana'a on a humiliating journey that lasted an entire month carrying the heads of their dead.

Since al-Qubeita is next to al-Maqatirah and their history is common, the researcher also referred to forgotten pages of the history of that region and reviewed the diaries of its sons' resistance to the Imami forces that invaded their country after the fall of al-Maqatirah Castle. Furthermore, the researcher studied how the sons of al-Sabiha and al-Hawashib stood next to the above-mentioned families, how the Imamis practised heinous war crimes in those regions and how the British planes stopped this forward advance towards the south.

The researcher also revealed that the resistance of the sons of al-Maqatira to the Imamate presence did not stop at the borders of the aforementioned uprising, as the injustice practised by the Imamis against them led to the emergence of the personality of Hamid al-Din al-Khaznar among their ranks, the returning Sufi jurist, who stood in the face of that injustice and exposed it objectively and lost his life for his ultimate goals.

The researcher concluded his study by reviewing important pages from the history of Taiz's struggle, which was nothing more than an extension of the al-Maqatirah uprising, albeit in a different way. The knot of guilt dominated several sheikhs who contributed - directly or indirectly - to quelling that uprising. Therefore, they began to think seriously about the independence of the governorate (district) of Taiz and the governorate (district) of Ibb. Hence, they established the first entity opposed to the rule of the Imamate which they called The Association of Sheikhs, but their matter was exposed early and they paid the price for that with their lives.

مدخل

بعيدًا عن الشمول الذي تعمل له، وتسعى إليه الثورات والانتفاضات المُنظمة، ورغم الجهل المُدقع، والعُزلة المُفرطة اللذين فرضا على الشعب اليمني، بدأ فكر الثورة والتمرد يتسلل إلى العوام، وقامت بالفعل حركات فلاحية مُسلحة ضد حكم الإمامة الكهنوتية، وهي على كثرتها لم تحظَ بالدراسة والتوثيق إلا ما ندر، صحيح أنَّها – أي تلك الحركات – لم تكن ترمي إلى إحداث تغيير جذري في النظام، إلا أنَّها – وهو الأهم – هزت عرش الطغاة، ومهدت لزوالهم.

لم تكن انتفاضة المقاطرة (موضوع الدراسة) إلا واحدة من كُل، إلا أنها كانت الأقوى، قدمت بمجملها حقائق لافتة، لتاريخ مُشبع بالظلم، بالخيانة، بالثورة، الطغاة فيه قتلوا لكي يحكموا، واستعبدوا لكي يسودوا، والعبيد تجملوا لكي يتسلقوا، وخانوا لكي يتشفوا، والأحرار للإنسان انتصروا، وللأوطان ضحوا، وفي المُحصلة الملحمية، ذهب الطغاة وعبيدهم إلى مزبلة التاريخ، وبقي الأحرار وحدهم هم الخالدون.

بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى، خرج الأتراك من اليمن وهم يشيدون ببطولة الإمام المُتوكل يحيى حميد الدين، وشراسة مُقاتليه؛ الأمر الذي أثار الخوف والرهبة في قلوب مشايخ تعز، وإب (المناطق الوسطى)، فتداعوا لعقد مُؤتمر يقررون فيه مصير مناطقهم، التقوا أواخر أكتوبر من العام ١٩١٨م في العماقي (إحدى قرى منطقة الجند السهلية)، وهناك اتفقوا على تشكيل حكومة لا مركزية، لا ترتبط بصنعاء إلا بالأحوال الاستثنائية.

أجمع المُؤرخون اليمنيون على فشل ذلك المؤتمر، إلا أنَّهم اختلفوا حول الأسباب التي أدت لذلك، فمنهم من قال أنَّ المشايخ اختلفوا حول اختيار أحمد علي باشا رئيسًا للحكومة، وأرجع أخرون ذلك الفشل إلى تغيب شيخ القماعرة محمد ناصر مقبل، والذي كان حينها مُنشغلًا بتوديع القائد التركي اللواء علي سعيد باشا في عدن[١].

وصل حينها إلى تعز القاضي علي بن عبدالله الأكوع قادمًا من صنعاء، وقدم نصائحه لأولئك المشايخ بالدخول في طاعة الإمام يحيى، وخوفهم من الارتماء في أحضان الإنجليز،

(١) التاريخ سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين المسماة (كتيبة الحكمة من سيرة إمام الأمة)، تأليف: عبدالكريم بن أحمد مطهر، دراسة وتحقيق: د. محمد عيسى صالحية، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص٢٧٧-٢٧٨، زورق الحلوى في سيرة أمير الجيش وقائد اللواء، حمود بن محمد الدولة، منشورات العصر الحديث، ١٩٨٨م، ص٩٨-٩٩، حياة عالم وأمير، محمد بن علي الأكوع، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط١، ١٩٨٧م، ص٢٧٤-٢٧٦، شعر وذكريات، يحيى منصور بن نصر، دار المناهل، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص ٥٢، مدينة تعز غصن نضير في دوحة التاريخ العربي، محمد محمد المجاهد، عدن للطباعة والنشر، تعز، ط٢، ٢٠٠٧م، ص٢٠٣-٢٠٤، تاريخ اليمن المعاصر، عبدالوهاب العقاب، ط١، دار رسلان، دمشق، ٢٠٠٩م، ص٣١.

ونجح في خلق قناعات جديدة، بعد أنْ استعمل سياسة الترغيب والترهيب.

توجه وفد من أولئك المشايخ إلى صنعاء، والتقوا بالإمام يحيى يوم دخوله ذات المدينة ١٩نوفمبر ١٩١٨م، رحب بهم أيما ترحيب، وقدم لهم الوعود بإبقائهم في مراكزهم، وإعفائهم من أي استحقاقات مالية إنْ هم دخلوا تحت حُكمه، وكانت خُلاصة تلك الزيارة قيامهم بمبايعته مُبايعة جماعية، ورفضهم تسليمه رهائن الطاعة(٢).

لم يكن ذلك الوفد مُمثلًا لغالبية سكان تعز، وإب، الذين لم يكونوا يرغبون أصلًا بالانضمام إلى حكم الإمامة؛ بل أنَّ بعض أولئك المشايخ لم يكونوا راضين عن ذلك الإلحاق، لتبدأ بعودتهم إلى مناطقهم الاضطرابات، وقد كانت القماعرة أولى القبائل المُتمردة بقيادة شيخها محمد ناصر مقبل، والعدين بقيادة أولاد الباشا، ومدينة تعز بقيادة أحمد بن علي باشا، وفي ذلك قال المُؤرخ عبد الكريم مُطهر: «بلغ إلى مولانا الإمام حصول الاضطراب في جهات اليمن الأسفل، وعدم ثبات أقدام الذين توجهوا من المقام الشريف بعد أخذ العهود عليهم، فوقف أكثرهم موقف المُتردد».

فور تلقيه أنباء تلك الاضطرابات، سارع الإمام يحيى بإرسال ١,٠٠٠ مُقاتل، بقيادة أحمد بن قاسم حميد الدين، ليتضاعف عددهم مع مرورهم من مدينة إب، وما أن دخلوا مدينة تعز – أواخر ديسمبر ١٩١٨م، حتى قاموا بنهب مخازن الأسلحة في قبة الحسينية، ومنازل المواطنين المُجاورة لها.

استنجد أبناء مدينة تعز بمشايخ جبل صبر، والأفيوش، فأمدوهم بالمُقاتلين، وذلك بالتزامن مع وصول إسماعيل الأسود – أحد الضباط الأتراك – قادمًا من ريمة، ومعه عدد من الجنود، سلم الأسلحة التي بحوزته لثوار تعز، وشاركهم حربهم ضد المُتفيدين، وأجبروا الأخيرين على مغادرة مدينة تعز بعد أسبوع من مقدمهم، أما الأسود فقد مضى في طريقه إلى عدن، وهناك سلم نفسه للإنجليز(٣).

في تلك الأثناء، أعلن الشيخ محمد عايض العقاب تمرده في حبيش، هجم وعدد من أبناء قبيلته على العساكر الإماميين المُتواجدين هناك، قتل منهم عشرة، وقيل أكثر، وحاصر الباقين ومعهم قائدهم العامل عبدالله بن محمد يونس في مركز الناحية (ظَلْمَة)، لتصل بعد ثلاثة أشهر قوات إمامية أخرى بقيادة عبدالله قاسم حميد الدين، صحيح أنَّها لم تكبح جماح الثورة

(٢) كتيبة الحكمة، مطهر، ج٢، ص٣٨-٣٩، حياة عالم وأمير الأكوع، ص٢٤٨-٢٨٦، الإمام الشهيد يحيى حميد الدين، أحمد بن محمد بن الحسين، دار المعارف، ٢٠١٤م، ج١، ص٢٧٦.

(٣) كتيبة الحكمة، مطهر، ج٢، ص٦٤-٦٥-٦٦-٨٨، حياة الأمير علي بن عبدالله الوزير، أحمد بن محمد بن عبدالله الوزير، منشورات العصر الحديث، دمشق، ١٩٨٧م، ص٨٧، غصن نضير، المجاهد، ص٢٠١- ٢٠٢.

العقابية، إلا أنَّها أنقذت المحاصرين، ليلوذوا – بعد ذلك – جميعًا بالفرار(٤).

عاد حينها الشيخ نور الدين محمد حسان إلى اليمن (سيكون له دورًا محوريًا في الأحداث الآتي ذكرها)، بعد أنْ أجبره الأتراك بقيادة إلياس الجركسي على مُغادرتها، وذلك بعد تمرده عليهم، حظي هذه المرة بدعم الإنجليز، ودخل فور وصوله في صراع مع عامل المخا الشيخ علي عثمان؛ والسبب رغبته في الاستحواذ على الأسلحة التي استبقاها الأتراك عند الأخير، كما دخل في صراع مع آل النعمان.

والأسوأ أنّه توجه – بعد ذلك – هو ومجموعة من المشايخ المُهادنين للإمامة صوب صنعاء، بايعوا الإمام يحيى، وطالبوه بمدَّ سيطرته على المناطق الوسطى، وتعيين علي بن عبدالله الوزير حاكمًا عليهم، في الوقت الذي كان فيه الإمام قد استعد لذلك، وهيأ عساكره للانقضاض على الأرض الخصبة، والإنسان المُسالم.

ثورة حبيش كانت ذريعة ذلك الغزو بصورته الفظيعة، وقع الاختيار حينها لعلي الوزير – (الذئب الأسود) هكذا كان يُلقب – أنْ يكون أميرًا للجيش، وصدر الأمر المُتوكلي إليه بتأديب المُخالفين من أهل حبيش، وإصلاح جهات اليمن الأسفل قاطبة.

وفي أواخر عام ١٩١٩م، وبعد إخماده لثورة حبيش، وعبر بوابة العدين، توجه علي الوزير صوب مدينة تعز، لم يكد يحط رحاله فيها، حتى فاجئه بعض أبناء جبل صبر بثورة هدَّت كيانه، استشاط على إثرها غضبًا، واستباح جبل صبر لثلاثة أيام، ووجه بعد ذلك عساكره المُتعطشين للفيد إلى قراه المُتناثرة، فعاثوا فيها نهبًا وخرابًا، وما هي إلا أسابيع معدودة حتى قام أبناء صنمات في ذات الجبل بقتل ٤٠ فردًا من عساكره، في حادثة أهتز لها جبل صبر من ذروة رأسه حتى أخمص قدميه.

توالت خلال العام التالي الثورات على ذلك الأمير، وفي العدين تمرد أهالي العاقبة، وجباح، وفي الحجرية تمرد أهالي المقاطرة، والقبيطة، وبالرغم من أنَّ باقي مناطق لواء تعز لم تكن مُستعصية، ورضخت من الوهلة الأولى لحكم علي الوزير، إلا أنَّ ذلك لم يشفع لها، استمر بإرسال الحملات العسكرية لإذلال المواطنين، وعمل عساكره على اختلاق المعاذير لابتزازهم، ونهب مُمتلكاتهم، واتخاذ منازلهم ثكنات ومقرات لهم، وقد كان الوافد الغريب مجاهدًا في سبيل الله، بينما الرعوي المسكين ابن البلد، واحدًا من إخوان النصارى، يستحق

(٤) كتيبة الحكمة، مطهر، ج٢، ص ٧١ - ٧٢ - ٧٣ / زورق الحلوى، الدولة، ص ١٠٣.

كل ما يجرى له(٥)!

أسبقية في المُقاومة

المقاطرة من أوسع نواحي قضاء الحجرية، وأشدها تشعبًا، يحدها غربًا الوازعية، وشرقًا القبيطة، وجنوبًا الصبيحة، وشمالًا بقية قضاء الحجرية، وبها – كما أفاد المُؤرخ أحمد بن محمد الوزير – القلعة الحصينة، والجبال الأربعة (الليم)، وحدودها واسعة الاتصال بالجنوب، ويقع بالجنوب الشرقي منها جُمرك معبق التابع لها(٦).

كانت المقاطرة أسبق من شهارة في مُقاومة الاتراك، لأنَّ قائد شهارة (الإمام يحيى حميد الدين) كان يتراوح بين المُفاوضة والمُقاومة، وكان يقبل الاحتلال إذا أتاح له المُحتل التولي على الزكوات والأوقاف بدون فرض زيادات في الضرائب السنوية المتفق عليها، أما قلعة المقاطرة بزعامة آل علي سعد فقد انتهجت – حسب توصيف عبد الله البردوني– النضال بلا مُساومة، وعُرف رجالها منذ ذلك الحين بِصلابة الموقف، وبالشراسة في القتال.

وغير بعيد دوخت المقاطرة بالوالي العثماني مصطفى عاصم الذي حكم اليمن نهاية سبعينيات القرن التاسع عشر، ويُقال أنَّ القائد التركي سعيد باشا أقسم حينها أنَّه سيطأ بقدميه أرض قلعتها الشهيرة، وحين عجز بعد خمس سنوات من الحصار عن ذلك، أنزلوا له ترابًا منها، فداسه بقدميه، وبرَّ يمينة، وكانت تلك الحادثة محط فخر واعتزاز أبناء المنطقة، حتى النساء كُنّ يُغنين:

تُـــركي نــزل رأس النقيـل مســرول يشتي البـــلاد وأن البلاد مـدول(٧)

كما قاومت المقاطرة الأتراك أثناء تواجدهم الأول في اليمن، واستعصت على القائد سنان باشا، ولم يدخلها الأخير أواخر القرن العاشر الميلادي إلا بعد عناء ٩٩٥هـ/١٥٨٧م، ومعه ١٢,٠٠٠ مُقاتل، وعن ذلك قال المُؤرخ عبدالصمد الموزعي: «ثم دخل– يقصد القائد سنان– بلاد المقاطرة العاصية المُكابرة، وهي بلدة عسرة المسلك، كثيرة المهلك، فدخلها بجيوش لا تحد ولا توصف».

ولأنَّ مُقاومة أبناء المقاطرة كانت شديدة، وخوفًا من أنْ يعاودوا التمرد على الدولة العلية، كانت عقوبة القائد التركي لهم شنيعة، وعنها قال ذات المُؤرخ: «فلما صفاها – يقصد القائد

(٥) كتيبة الحكمة، مطهر، ج٢، ص٢٧٥-٨٠-٨٧-٨٨-٩٠، هجر العلم ومعاقله في اليمن، القاضي إسماعيل الأكوع، دار الفكر، ط١، ١٩٩٥م، ص١٨٩، التاريخ العام لليمن، محمد يحيى الحداد، ج٤، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص٩٣، تاريخ اليمن المعاصر، العقاب، ص٣٦.

(٦) حياة الأمير، الوزير، ص٦٣١.

(٧) اليمن الجمهوري، عبدالله البردوني، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٥، ١٩٩٧م، ص٨٧-٨٨، حميد الدين الخزفاري، خالد راوح، صحيفة (الثقافية)، العدد ٢١٠، ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٣م.

سنان– وأصلحها، وجلاها، وانقاد لطاعته أسفلها وأعلاها، قبض الرهائن من كل مطيع وخائن، وحتم بأنْ تكون الرهينة مثلثة العدد، زوجة، وبنتًا، وذكرًا من الولد، لا ينقص منهم أحد، وأودع الرهائن المذكورة في دار الحجرية المشهورة.. فبلغت الرهائن المذكورة في العدد خمسمائة نفر أو أزيد»(٨).

وبالعودة إلى تاريخ المقاطرة غير البعيد، فهناك من يقول أنَّ عداء آل علي سعد للأتراك يرجع لتقريب الأخيرين لآل النعمان مُنافسيهم التقليدين في المنطقة، وعندما آلت أعمال الحجرية بعد ذلك إليهم؛ انصاعوا للدولة العثمانية، ليتجدد ذلك العداء حينما عُين أحمد نعمان قائم مقام للحجرية، وقد اتهموا حينها بقتله في قرية الزميلة – عزلة الزعازع بخنجر مسموم، وهو يجهز جنودًا لإرسالهم إلى لحج، لينضموا إلى جيش علي سعيد باشا، وذلك بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م، فحل أخوه عبدالقادر محله(٩).

الجولة الأولى

قاومت المقاطرة الزحف الإمامي المُتوكلي على تعز في لحظاته الأولى، وقد جاءت إشارة المُؤرخ سلطان ناجي إلى ذلك عابرة، رغم أنَّه من أبناء المنطقة، حيث قال: «ثم اتجهت جيوشه – يقصد الإمام يحيى حميد الدين – نحو المنطقة السفلى في الحجرية، فوقفت في وجهها قبيلة المقاطرة، وقاومتها مُقاومة مُنقطعة النظير، وبعد حوالي عامين سقطت المقاطرة، وسقطت قلعتها المنيعة بعد أنْ ذاعت مُقاومة هذه القبيلة في كل أطراف البلاد»(١٠).

وما ينبغي توضيحه – هنا – أنَّ تلك المُقاومة استمرت لعامين، وكانت على جولتين مُنفصلتين، استمرت الجولة الأولى لعام كامل، ويمكن تحديدها من أواخر عام ١٩١٩م إلى أواخر العام التالي.

عبد الكريم مطهر (المُؤرخ الرسمي للإمام يحيى) اكتفى هو الآخر بذكر لحظة إخماد الجولة الأولى وبدء جولة أخرى هي أشد وأنكى، حيث قال في حوادث سنة ١٣٣٩هـ، وهو ما يوافق العام ١٩٢٠م: «وكان استفتاح القسم الأكبر من ناحية المقاطرة، وهذه الناحية مَعدودة من قضاء الحجرية، إلا أنَّها ما زالت بكرًا إلى قبل هذا التاريخ، واشتهرت قلعتها بالمناعة والحصانة، وعدم النظير في الارتفاع».

---

(٨) الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل الموزعي، تحقيق عبدالله الحبشي، منشورات المدينة، ط١، بيروت، ١٩٨٦م، ص٦٤-٦٥.

(٩) كتيبة الحكمة، مطهر، ج٢، ص٢٤٧، هجر العلم، إسماعيل الأكوع، ص٦٩٠، حياة الأمير، الوزير، ص١٤١، ثمانون عاماً من حياة النعمان، عبدالرحمن طيب بعكر، ط١، ١٩٩٠م، ص٢٢-٢٣.

(١٠) التاريخ العسكري لليمن، سلطان ناجي، دائرة التوجيه المعنوي، ط٣، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص١٠٥-١٠٦.

وهذا وإنْ دل فإنما يدل على أنَّ ثمة مُقاومة عنيفة حدثت في جبال وحصون المقاطرة المنيعة، بدليل إسهاب – ذات المُؤرخ – بذكر تفاصيل الجولة الثانية، حيث الغلبة فيها كانت للقوات الإمامية(١١).

من جهته الباحث عبدالعزيز المسعودي قال أنَّ علامات المُعارضة ضد حكم الإمام يحيى ظهرت في المقاطرة عام ١٩١٩م؛ وذلك بعد أنْ أدت سياسته المركزية إلى نفور سكانها، مُشيرًا إلى أنَّ الطبقة الحاكمة حينها أساءت تقييم الشعور القبلي الاستقلالي، والأزمة الاقتصادية الحادة التي تمر بها تلك المنطقة جراء الوباء والجفاف الذي قضى على المحاصيل الزراعية، والثروة الحيوانية، مُلمحًا إلى أنَّ الإشاعة التي أطلقها عملاء الحكومة بتورط عامل الحجرية الشيخ عبدالوهاب نعمان في تلك الحركة ساعدت في تدهور تلك العلاقة(١٢).

الجولة الثانية

أمام ذلك العصيان والتمرد المقطري، قرر أمير تعز علي الوزير إرسال حملة عسكرية كبرى لإخماده، ولم يعدم المبررات لذلك؛ فأبناء المقاطرة – كما أرسل للإمام يحيى في صنعاء – مُتهاونين في أمور الدين، ولم يبق لديهم منه ومن تعاليمه ما يعدون به من أهل الإسلام، أهملوا – حد توصيفه – الصلاة وعقود الأنكحة، وخربوا المساجد، وأصبحوا إخوان نصارى نتيجة قربهم من عدن، وذهابهم إليها، ومُعاشرتهم للأجانب! وقد طلب في رسالته الإذن بإصلاح تلك الجهة، وإدخالها إلى حظيرة الطاعة، وتجديد ما اندرس من رسوم الدين وتعاليمه(١٣).

لجوء السلطات الإمامية إلى الاستشهاد بالشريعة الإسلامية، وإقامة الحدود، ألغت – كما أفاد الباحث عبدالعزيز المسعودي– عمليًا الدور السياسي والأيدلوجي للتراث الشعبي المُقاوم، وهدفها من ذلك سحق أي مُعارضة فلاحية قائمة، والأسوأ من ذلك اتهام تلك الثورات بأنَّها مُستوردة من الإنجليز، وهو ما حصل مع ثورة المقاطرة وغيرها، وتبعًا لذلك لا يُعتبر هؤلاء الثوار مسلمون؛ بل إخوان نصارى، ودماؤهم وأموالهم مباحة للمجاهدين أنصار الإمامة والإمام(١٤).

(١١) كتيبة الحكمة، مطهر، ج٢، ص٢٤٧.
(١٢) معالم تاريخ اليمن المعاصر، القوى الاجتماعية لحركة المعارضة اليمنية (١٩٠٥- ١٩٤٨م)، د.عبدالعزيز قائد المسعودي، مكتبة السنحاني، صنعاء، ط١، ١٩٩٢م، ص١٥٠-١٥١.
(١٣) كتيبة الحكمة، مطهر، ج٢، ص٢٤٨، التاريخ العسكري، ناجي، ص١٠٦.
(١٤) معالم تاريخ اليمن المعاصر، المسعودي، ص١٥٢.

وصل الإذن لعلي الوزير باجتياح المقاطرة، فما كان من الأخير إلا أنْ استدعى عامل الحجرية الشيخ عبدالوهاب نعمان للمُشاورة، فيما أسند عمالة المقاطرة لأخيه عبدالواسع نعمان، وحَشد لغزوها آلاف العساكر، غالبيتهم من أرحب، ووداعة، وبعضٌ من رعايا مشايخ تعز، وإب بشقيهم المُتجمل، والمخدوع.

كانت الأكاحلة الهدف الأول لذلك الجيش، فهي حد توصيف المُؤرخ عبد الكريم مُطهر: «أقرب العزل من سائر البلاد، وسكانها أخبث من غيرهم جراءة وعدوانًا»، وقد انقسم ذلك الجيش إلى عدة فرق، فيما تولى قيادة المقاومة فيها البطل شاهر قائد ردمان الأكحلي، كبد الأخير وأصحابه الإماميين وأذنابهم عشرات الضحايا، ولأنَّه كان ماهرًا بالقنص؛ فقد أردى الشيخ عبدالواسع نعمان قتيلًا، بعد أنْ أنذره بعدة طلقات تحذيرية في الجو، ليحل الشيخ عبدالعزيز عبدالواسع (ابن الشيخ القتيل) مكان أبيه.

وأضاف المُؤرخ مُطهر: «وفي اليوم الثاني تقدم المجاهدون– أي مُقاتلو الإمامة – كل طائفة على جهتها، فرزقهم الله الظفر بالأعداء، وتمزيق شملهم في ذلك الفضاء، واستولوا على جميع الحصون، وغنموا من الأعداء مالا يحصى.. وكان شهداء أنصار الحق في هذه الواقعة قليلة بالنسبة لمن قُتل من البغاة وأهل العناد، وبعد الرفع إلى الأمير – يقصد علي الوزير – بصفة ما جرى، صدر الأمر الشريف من مولانا الإمام بهدم بيوت شاهر، فألحقت بالعدم، وسويت بالهدم الى القرار».

تم تقسيم الجيش الإمامي بعد ذلك إلى قسمين، قسم توجه صوب المقاطرة من جهة الشرق، وقد كان له التقدم من الأحكوم صوب الأشبوط، والمسيجد، ليطلب سكان هاتان العزلتان الأمان، أما عزلا الزعازع والزعيمة فلم يسقطن إلا بعد أنْ قاومتا ذلك الزحف وبقوة، وما هي إلا أيام معدودة حتى وصلت إلى هذه الجبهة تعزيزات عسكرية بقيادة حسن بن قاسم الوزير، وعبدالله بن سعيد الجبري، وقد كان مرور الأخيرين من دمنة خدير، وبصحبتهم أحد المدافع.

أما القسم الآخر من الجيش فقد وصله المدد عبر تربة ذبحان، بقيادة علي عبدالله الشهاري، دخل هؤلاء المقاطرة من جهة الغرب، واحتلوا عزل الزريقة، والنجيشة، والصوالحة، والمكابرة، وإلى شرجب توجه جماعة منهم ومعهم أحد المدافع، ومنها قاموا بقصف عزلتي الدهمشة، والهويشة، حتى أجبروا سكانها على الاستسلام.

وحدها قلعة المقاطرة بقيت صامدة في وجه القوات الإمامية، ومعها ١٢ عزلة مجاورة، ليقرر الأمير علي الوزير– أمام تلك الاستماتة في الدفاع والمقاومة – أنْ يتوجه إلى المقاطرة

بنفسه، ومعه مئات العساكر، وفي ذلك قال المُؤرخ مُطهر: «فاجتمع لدن الأمير جيشٌ عظيم، رؤساؤه أبطال القتال، وفرسان ميدان النزال.. ودارت المُراجعة بين الأمير وبينهم – يقصد المقاومين– فانكشف من نهايتها أنَّهم على العصيان مُصرون، وبقلعتهم وما حولها من الحصون ممتنعون».

نظم ابن الوزير قواته، وقسمها لأربعة فرق، ثم وجهها لاقتحام قلعة المقاطرة، ومحاصرتها من الجهات الأربع، أرسل قوات بقيادة عبدالجليل بن أحمد باشا المتوكل من جهة الغرب، ومن الشرق أرسل قوات بقيادة حسن بن قاسم الوزير.

أما القوات الزاحفة من الجنوب فقد جعل عليها يحيى بن محمد الوادعي، ومن الشمال– وبعد تلكؤ– أرسل قوات بقيادة حمود بن محمد الدولة، وكان مع كل مجموعة أحد المدافع السريعة، فيما كانت القيادة العامة لذلك الجيش من نصيبه.

في البدء سقط حصن الجاهلي؛ وذلك بعد أنْ نجحت الفرقة الشمالية في اقتحامه، ومن ثم الاقتراب من حصون الليم، وعن الأخيرة قال المُؤرخ مُطهر: «وهي أربعة حصون شواهق، لا يمكن الوصول إلى القلعة وحصنها المسمى بالتميدني بدون الاستيلاء عليها، وقد كان الأعداء حصنوها تحصنا باهرًا، وعمروا المتاريس في جوانبها، وأوقفوا فيها رجال القتال، وجميع هذه الحصون يحمي بعضها البعض الآخر».

في تلك الأثناء سيطرت الفرقة الغربية على قريتي الخزفار، والقاعدة، ومن ثم التحمت مع الفرقة الشرقية التي كانت قد أتمت سيطرتها على حصون الليم، أما باقي التفاصيل فأتركها للمُؤرخ مُطهر الذي قال: «وفي اليوم الثاني تقدم جميع الجيش من جميع الجهات، على القلعة وحصن التميدني، وكان من فيها من البغاة قد أجمعوا على عدم تسليمها أو الموت دونها».

وأضاف مُطهر: «ومن الغريب أنَّ نساءهم كُنّ أكثر منهم جراءة، فإنهم في أثناء الحرب كانوا – يقصد المقاومين – يسمعون منهن التوبيخ والتقريع، ما يحملهم على معاودة الجد في الحرب، ودوام الاصرار والامتناع»[١٥].

ومما تحفظه ذاكرة العوام أنَّ نساء المقاطرة كُنّ حينها يرددن:

يـــا الليمتين كنت حصـــن عالي   واليـــوم طـريق للخيـــل والبغالي[١٦]

(١٥) كتيبة الحكمة، مطهر، ج١، ص٢٨٤-٢٨٥، ج٢، ص٢٤٩-٢٥٠-٢٥١-٢٥٣-٢٥٥-٢٧٩-٢٨٠-٢٨٣-٢٨٤، حياة الأمير، الوزير، ص١٤٣-٥٥٩-٥٦٩-٦١٠-٦١٥-٦١٨-٦٢٠-٦٢١-٦٢٤-٦٣٠-٦٣١-٦٣٢.

(١٦) الثقافية، مصدر سابق.

وفي سبتمبر من العام ١٩٢١م، وبعد ثلاثة أشهر من المقاومة والحصار، سقطت قلعة المقاطرة، وما كان لها أنْ تسقط لولا خيانة الشيخ نور الدين محمد حسان، والأخير صهر الشيخ القتيل عبدالواسع نعمان، أعطى المواثيق للمُقاومين بعدم التعرض لهم في حال أعلنوا استسلامهم، وحين أرسلوا له بالموافقة، زارهم ومعه حوالي ٢٥٠ شخصًا معظمهم من العدين، اخفوا اسلحتهم تحت ملابسهم، وانقضوا على حُراس القلعة، وجعلوا بوابتها الوحيدة مشرعة أمام القوات الإمامية، وفي ذلك قال أحد شعراء المقاطرة:

قل لابن حسان ذي خان المواثيق والعهود

وسلم القلعة أمير الجيش يملأها جنود

كما التصقت عبارة (بياع القلعة بعاس) بالخائن نور الدين محمد حسان وغيره من الخونة، وليته – أي الخائن حسان– اكتفى بذلك؛ بل شارك الإماميين انتقامهم من مُقاومي المقاطرة، قتلوا أغلبهم، ونهبوا ممتلكاتهم، حتى الملابس انتزعوها من فوق أجسادهم، وتركوهم عرايا[١٧]، ولم يستثنوا حتى النساء – سلبوا حليهن، ونقودهن. ولم يكتفوا بالقتل والتنكيل والسلب؛ بل عمدوا على نسف منازل المواطنين، وهم يرددون: «يا حجرة اليهودي.. روحي ولا تعودي»[١٨].

في تلك الأثناء، دارت مَعركة بين أتباع الشيخ حمود البترا، والشيخ عبدالله بن يحيى الصبري من جهة – حسب إفادة حفيد الأخير أمين حسن علي عبدالله الضباب – وبين القوات الإمامية من جهة أخرى؛ والسبب أعمال النهب والسلب التي مُورست في حق أبناء المقاطرة، اعترض الشيخان المذكوران حينها على ذلك، إلا أنَّهما لم يستطيعا كبح جماح شهوة الفيد التي كانت مُتغلغلة في نفوس مُقاتلي القبائل الشمالية.

ألقى بعض الثوار أنفسهم من على مُرتفع القلعة الشاهق، وفضلوا الموت على الأسر، وقد بلغ عدد قتلاهم في المعارك الأخيرة حوالي ٢٠٠ قتيل، والأسرى ٢٥٠ أسير، حسب إحصائية المُؤرخ مُطهر، وقد أشار الأخير إلى أنَّ عساكر الإمام حزوا رؤوس القتلى، وأجبروا الأسرى على حملها إلى صنعاء في رحلة استمرت ٣٠ يومًا.

كما لم ينس المُؤرخ مُطهر أنْ يصف تكبيرات العساكر حال رؤيتهم لجثث الضحايا، وقد شبعت من لحومهم النسور والعقبان، ونقل بعد ذلك قصيدة للشاعر علي بن عبدالله الشامي

(١٧) اليمن المعاصر من القبيلة إلى الدولة، د. عبدالعزيز قائد المسعودي، ٢٠٠٤م، ص١٥١، اليمن الجمهوري، البردوني، ص٩٤، المقاطرة كما هي.. وثوارها يتساءلون، سمير حسن، صحيفة (الصحوة)، العدد ٨٩٥، ٩ أكتوبر٢٠٠٣م.

(١٨) التاريخ العسكري، ناجي، ص١٠٧.

يمدح فيها أمير تعز، جاء فيها:

ما للمقاطرة الفيحاء هاج بها موج الضلال فأبدت منك عصيانا
حتى دعتك بجيش ما قصدت به إلا تشييد للإسلام أركانا
نثرت في القيض هام المارقين لها درًا ومن علق الأوداج مرجانا[١٩]

ولأهمية تلك الانتفاضة، كتب القنصل الأمريكي في عدن ريمون دافيس تقريرًا عنها، وبعثه إلى وزارة الخارجية الأمريكية في وشنطن، ومنه نقتطف: «وقد تمكن أهالي المقاطرة من التصدي للهجوم الأول، إلا أنَّ القوات الحكومية تمكنت في وقت لاحق عن طريق الخديعة، وبعد قتال ضار بالسلاح الأبيض من اقتحام قلعة المقاطرة. ومن المعروف أنَّ المقاطرة من العشائر العربية الشديدة الشكيمة التي قاومت الوجود التركي في اليمن لمدة سبعين عامًا».

وأضاف دافيس: «وبسقوط قلعة المقاطرة تمكن الإمام من استعادة هيبته، ومد نفوذه المباشر على أخصب المناطق الزراعية المُنتجة للبن، والتي ستدر عليه مبالغ طائلة يجبيها عملاؤه من عائدات الزكاة، بالإضافة إلى الحصول على موقع استراتيجي يطل منه على المناطق الغربية من محميات عدن، وعلى وجه الخصوص نقطة الحدود البريطانية المعروفة بنوبة دكيم، ومدينة لحج اللتين أصبحتا الهدف الثاني للإمام»[٢٠].

هزيمة سياسية للإمام

عدَّ كتاب وشعراء الإمام احتلال المقاطرة فتحًا عظيمًا، وتباروا في تسجيل كتاباتهم وأشعارهم التي تمدح الإماميين، وتُسفه وتُكفر المُقاومين، وفي ذلك قال المُؤرخ مُطهر: «وكان الفتح المذكور فتحًا عظيمًا، انتظمت به أحوال قضاء الحجرية، وهابه البعيد والقريب، وتحدثت به الركبان، وأذهل من في قلوبهم مرض ضعف الإيمان، وارتاع له من في عدن من عبدة الصلبان، وقوي به الحق، وانهد به ركن الباطل وانشق».

وقال الشاعر عبدالوهاب بن أحمد في ذلك مهنئًا الأمير علي الوزير:

نُهني جمال الدين بالفتح إنَّه لفتحٌ عظيم مُوجب أعظمَ الشكر
نهضت على اسم الله والله ناظرٌ إليك فنلت الفتح بالسيف والقهر

وهذا الشاعر إسماعيل بن أحمد الجماعي قال مادحًا ذات الأمير:

وما المقاطرة القصوى بقاصيةٍ عن باسه بل كساها الذل قُمصانا

(١٩) كتيبة الحكمة، مطهر، ج٢، ص٢٨٤-٢٨٥-٢٨٦-٢٨٨، التاريخ العسكري، ناجي، ص١٠٦-١٠٧، اليمن الجمهوري، البردوني، ص١٠٣-١٠٤.

(٢٠) أحداث المقاطرة (١٩٢٠م-١٩٢١م)، د. عبدالعزيز قائد سيف، مجلة (اليمن الجديد)، العدد الثالث، السنة التاسعة عشر، مارس ١٩٩٠م.

وها هـي اليـوم فـي أبـواب دولتـه تعلي الأذان وتشكـو مُـرَّ مـا كـانا
من بعد مـا كـانت الأتـراك تاركة لها وأخلاطـها صيـدًا وفُرسـانا[٢١]

في مُجمل نقده على تلك الدعاية المقيته التي حفلت بها أدبيات من أرخو لتلك الفترة من كتاب وشعراء، قال الشاعر عبدالله البردوني إنَّ هذا الطراز من الشعر الرسمي لا يؤرخ التاريخ من الداخل، ولكنه يجاري دعاية القصر، ولم يكن سوى روائح مناسبات تسترضي الحاكم أو تحاول كسب رضاه، وأنَّه أضعف من أنْ يؤدي دعاية ناجحة، ولو كان الشعب مُغفلًا ما احتاجت تلك السلطة البائدة إلى وفرة الدعاة والدعايات، ولو نجح هؤلاء ما احتاج الإمام يحيى إلى تحريك جندي واحد.

البردوني قال أيضًا أنَّ تلك الحرب لا تسمى (فتحًا)؛ لأنَّها وقعت على قطعة من الوطن، ولم يكن تمرد المقاطرة – حد وصفه – إلا دليلًا صارخًا على سوء النظام، وعجزه السياسي، والأهم من ذلك أنَّه اعتبر إخضاع تلك المنطقة هزيمة سياسية لدولة الإمامة[٢٢].

القبيطة.. الوجهة التالية

بالتزامن مع سُقوط قلعة المقاطرة سبتمبر ١٩٢١م كان هناك أكثر من جبهة مُشتعلة في مناطق اليمن المُختلفة، قوات إمامية توجهت من قعطبة جنوبًا، واحتلت الضالع، والشعيب، والأجعود، والقطيب، وقوات أخرى توجهت من حفاش، وحراز غربًا، وانتكست في ملحان، وبني سعد، وبُرع؛ وذلك بفعل المُقاومة التي تصدرها أبناء تلك المناطق المسنودين من قبل حاكم صبيا محمد بن علي الإدريسي، المدعوم أصلًا من قبل الإنجليز.

كان لسقوط المقاطرة وقلعتها المنيعة عظيم الأثر في رفع مَعنويات القوات الإمامية المُشتتة هنا وهناك، وتبارى الشعراء في مدح الإمام يحيى وذئبه الأسود الأمير علي الوزير، ووصفوا ذلك الانتصار بـ (الفتح العظيم)، وجاروا طموحات سيدهم التوسعية، وحفزوه على التوغل جنوبًا، وكتب الشاعر علي بن محمد قصيدة طويلة عن ذلك، نقتطف منها:

تقدم فقـد ثلت عروش الجبـابـرة وذُكت رواسي بغيهم فهي صاغرة
فبـاءوا وقـد بـاعوا من الكفرِ دينهم بصفقة ذل وهي لا شـك خـاسـرة
تـاريـخ حـم إنَّ إمـامنـا سيملك جبل شمسان بعد المقاطرة

كانت القبيطة (المُحاددة للمقاطرة) الوجهة التالية لذلك التوسع، ولم يعدم الإماميون المُبررات المُحفزة لذلك، فأطراف تلك الناحية كانت حد توصيف المُؤرخ عبدالكريم مُطهر: «مُهملة عن الإصلاح، عريَّةٌ عن الضبط التام الضامن للفلاح»، وتفرَّد ذات المُؤرخ – الذي كان أشبه بالمُراسل الحربي– في نقل تفاصيل تلك الحملة أو الحملات العسكرية إنْ صح

(٢١) كتيبة الحكمة، مطهر، ج٢، ص٢٨٩، التاريخ العسكري، ناجي، ص١٠٦-١٠٧.
(٢٢) اليمن الجمهوري، البردوني، ص ١٠٣ - ١٠٤.

التعبير، مُشنعًا كعادته بالثوار المُقاومين، مُشيدًا بأنصار الإمامة المُتفيدين.

في البدء أرسل أمير تعز علي الوزير إلى تلك الناحية بحشدٍ من العساكر، ومعهم أحد المدافع، بقيادة عاملها المُعين الشيخ محمد أحمد نعمان، سيطر الأخير بعد حروب وخطوب على المنطقة، واستقر في منطقة معادن (أقصى حدود قضاء الحُجرية)، فيما انسحب المُقاومون إلى الصبيحة، واستمروا من هنالك بشن الغارات تلو الغارات، وتجريع الإماميين وأعوانهم صنوف العذابات.

وعن أولئك الثوار قال المُؤرخ مُطهر مُتحاملًا: «وأصروا على ما هم عليه من الضلال، ودوام الاحتلال، وجرَّأهم على ذلك بُعد العهد بالطاعة، وأنَّهم لا يعرفون لأحدٍ ولاية، مع ما هم عليه من البداوة، وشدة الجهل والعبادة»، وأضاف: «شرعوا هُم ومن نزلوا لديهم – يقصد أبناء الصبيحة – في الغزو على المُجاهدين.. وحين رأى قائد محطة معادن– يقصد الشيخ محمد أحمد نعمان– أنَّ الشرَّ منهم قد أحدق به؛ رفع إلى الأمير مُستمدًا إرسال الجنود إليه، وتلافي الحال، فأسعده الأمير إلى ما أراد».

تعزيزًا للقوات الإمامية المُرابطة في معادن، أرسل أمير تعز بحوالي ٥,٠٠٠ مُقاتل، فريقٌ منهم من قبيلتي حاشد، وبكيل، بقيادة حسن بن قاسم الوزير، وفريق آخر من رعايا تعز، وإب بشقيهم المُتجمل، والمخدوع – كما سبق أنْ وصفنا – وكان غالبيتهم من العدين، بقيادة الشيخ حمود عبد الرب، وبعض أولاد علي عبدالله بن سعيد، وآخرين.

تعاضد أهالي القبيطة والصبيحة لمُواجهة الزُحوفات الإمامية، وصدوها أكثر من مَرة، وحين رأى الإماميون استماتتهم في الدفاع والمُقاومة، اتهموهم بالتقطع للمُسافرين، والعمالة للإنجليز، وقال المُؤرخ مُطهر أنَّهم طلبوا الدعم والمُساندة من الأخيرين، ومن قبيلة الحواشب المُجاورة، وغيرهم، وأضاف في نقله لتفاصيل المُواجهة الأولى: «فتقدم المُجاهدون بعد اجتماعهم إلى وادي طفيح من بلد الصبيحة، وأجلوا من هنالك بحربٍ شديد، ووقف المجاهدون في الوادي المذكور، وانبثوا في جهاته».

طالت مدة بقاء الإماميين في ذلك الوادي دون إحراز أي تقدم؛ فلامهم الأمير علي الوزير على ذلك، وحثهم على التوغل جنوبًا، وأمدهم بالمؤن والذخيرة، وعززهم بمدفع ومجاميع إمامية من لواء تعز بقيادة الشيخ عبدالله بن يحيى عبدالجليل، وابن أخيه الشيخ علي هَمَّام. وصلت هذه القوات وكلها حماس لخوض غمار المُواجهة، فيما آثر قاسم الوزير ومجاميعه القبلية البقاء في وادي طفيح، وتحديدًا في منطقة الزيلة.

استولت القوات الإمامية المُتحمسة على عدد من قرى الصبيحة، وسيطرت على مدينة الفرشة، ليسقط الشيخ علي هَمَّام قتيلًا، مُضرجًا بدماء الخيبة، لاحقًا بولده محمد الذي قتل قبل

بضعة أشهر في قلعة المقاطرة، وفُقدت جثته في أحراشها، وعن تلك المعارك الشرسة قال المُؤرخ مُطهر: «فدارت رحى الحرب بين الفريقين في حرارة القيظ، وصبر الفريقان صبرًا عظيمًا.. وطال الأمر والنضال، ولم تُسفر الحال عن المُراد، وتراجع بعض المُجاهدين إلى ورائهم، وأعاد الأعداء ما نصبوه من الكمين».

تراجع الإماميون إلى منطقة الفرشة، ولم يعاودوا الهجوم على باقي مناطق الصبيحة مرة أخرى، إلا بعد أنْ انضمت إليهم – بأوامر من أمير تعز – القوات القبلية المُتمركزة في وادي طفيح، ليتمكنوا جميعًا، وبعد حروب وخطوب من اقتحام قلعة المنصوري، وبعد أنْ قدموا في سبيل ذلك عشرات القتلى، وعن تلك المعركة قال المُؤرخ مُطهر: «فطال العراك، وعظُم الاشتباك، وحمى الوطيس، وتيسر للمجاهدين بعد أهوال اقتحام القلعة، وقد فرَّ من فيها، ومزقوا الأعداء شرَّ مُمزق، وتبدد جمعهم وتفرق، وكانت قتلاهم كثيرة، ومن الجُملة أكثر رؤسائهم، وصاحب القلعة المذكورة، وانحل أمرهم، وبلغ الفارون إلى لحج وعدن».

مارس الإماميون في تلك المناطق جرائم حرب شنيعة، أذلوا، ودمروا، وسلبوا، وعمدوا بعد نهب قلعة المنصوري على نسفها، وتركها قاعًا صفصًا، ولولا الأمراض التي فتكت بهم؛ لطال بقاؤهم في تلك الجهة، انسحبوا مُكرهين، وبقي عدد منهم في منطقة معادن، الحد الفاصل بين القبيطة والصبيحة، وقال المُؤرخ مُطهر عن ذلك: «ولم يرتفع الجُند الإمامي من هنالك إلا بعد أنْ أخرب قلعة المنصوري إلى القرار، وذاق أهل الصبيحة من الأهوال مالم يخطر لهم على بال، ولا دار بالأفكار».

نال أهالي قبيلة الحواشب المُجاورة – الذين عاضدوا ثوار القبيطة، والصبيحة في انتفاضتهم– من ذلك الانتقام الإمامي نصيب، قرر الأمير علي الوزير الهجوم على بلدتهم، جاعلًا من منطقة ماوية مُنطلقًا لذلك، وكلف الشيخ نور الدين محمد حسان بتلك المهمة، وكان مع الأخير ٥٠٠ مُقاتل، جلهم من جبل حبشي، وقد أشاد بهم المُؤرخ مطهر بقوله: «وقد كان لهم في وقائع المقاطرة أثرٌ حسن، وإقدامٌ متقن».

تقدمت القوات الإمامية أواخر عام ١٩٢١م إلى منطقة الذُرَيْجَةِ، وهناك انضم إليهم عامل قعطبة الشيخ قائد بن صالح، كما تم تعزيزهم بطائفةٍ من الجند النظامي، تدخلت حينها الطائرات الإنجليزية، وأصلتهم بقذائفها، وقتلت من قتلت، فيما ولى من نجا منهم الأدبار، ليعاود الأمير علي الوزير بعد ذلك السيطرة على أطراف ماوية بنفسه، وفيها استقر لعدة أشهر، ليزور اليمن أثناء مكوثه ذاك الرحالة أمين الريحاني إبريل ١٩٢٢م، وقد استقبله في

دار الحكومة العتيق ببرود شديد[٢٣].

تحدث الرحالة أمين الريحاني عن مُعاناة سكان تلك المناطق في ظل حكم الإمامة، ناقلًا انطباعات مُواطنين التقاهم في الحواشب، وماوية، مُستغربًا من تفضيلهم للأتراك، والإنجليز على الإمام يحيى، وهذا أحد مواطني ماوية – لم يذكر اسمه – خاطبه قائلًا: «لا شك أنَّ حضرة الإمام رجل كبير قدير، ولكنه ظالم يرهق الرعية بالضرائب المُتعددة، ولا ينصف السنيين الشوافع في بلاده، ولا يُحسن السياسة مع الإنجليز، فقد استنزل على جنوده هول طائراتهم، ولا يفتح المدارس في البلاد، ولا يعزل الظالمين من عماله مثل عامل هذا البلد، ولا يجود بما رزقه الله، وهو الغني الأكبر في اليمن كله»[٢٤].

الرحالة عبدالعزيز الثعالبي هو الآخر زار اليمن بعد عامين، ونقل انطباعات مُماثلة، ونقل أيضًا جانبًا من تاريخ المناطق التي مرّ بها، وقال أثناء حديثه عن الحواشب: «وقد مررنا في طريقنا بجبل الضلعة الذي تطاحنت فيه جيوش الإمام بجيوش الحواشب، ولولا انضمام الطائرات الإنجليزية لهذه الأخيرة، لكانت طعمة للإمام، ولبلغت عساكره إلى أطراف عدن، والشجاعة مهما كانت لا تستطيع أنْ تُكافح وحدها قوة الطائرات، ولما انتصرت الحواشب عاد الجيشان إلى حدودهما، والتزم الإمام بالمكوث داخل حدوده القديمة، وأنْ لا يعتدي في المُستقبل على أرض الحواشب»[٢٥].

الفقيه الثائر

كغيرها من مَناطق تعز، وإب، دخلت الحجرية ومنطقة المقاطرة بالذات نفق الأئمة المُظلم، وتَجرعت جبروت عمالهم، وعسف عساكرهم، وكانت بين الفينة والأخرى تقوم بحركات تمردية مُسلحة، لم يتعمق المُؤرخون المعاصرين في ذكر تفاصيلها، باستثناء المُؤرخ الإمامي محمد زبارة، الذي تفرَّد في ذكر حكاية ثورية أبطالها من أطراف قضاء الحجرية، ولعله قصد بذلك أبناء المقاطرة الأشاوس، حيث أقدم الأخيرون على قتل مفضل بن أحمد بن أحمد، أحد أقارب أمير تعز علي الوزير نوفمبر ١٩٢٦م، ومعه عدد من العساكر.

وإكمالًا للمشهد قال زبارة: «فجهز الأمير – يقصد ابن الوزير – على تلك الجهة، وكان ضبطهم ضبطًا مُحققًا، إلا من تعدوا بالرماية والقتل للسيد، ففروا إلى عدن، ولم يتم إلى الآن ضبطهم».

(٢٣) كتيبة الحكمة، مطهر، ج٢، ص٢٨١-٣٣٣-٣٣٤-٣٣٥-٣٣٦-٣٣٧-٣٣٨-٣٣٩.
(٢٤) ملوك العرب، أمين الريحاني، دار الجيل، بيروت، ط٨، ١٩٨٧م، ص٩٥-١٠١-١٠٤.
(٢٥) الرحلة اليمنية، عبدالعزيز الثعالبي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م، ص٤٣-٥١.

وهكذا، وفي ذروة تلك المعاناة، وفي ذات العام أيضًا، وصل الفقيه الصوفي الثائر حميد الدين بن علي بن عبدالله المكابري إلى قريته الخزفار، وصل عائدًا من غربة أخذت ٢٢ عامًا من سنين عمره، توزعت بين عدن، وجيبوتي، والحبشة، إما عاملًا كأسطى يبني للناس مساكنهم، أو طالبًا للعلم يبني للعقل مداركه، وقد تدرج في الصوفية الشاذلية حتى وصل إلى أعلى مراتبها(٢٦).

بدأ الفقيه الخزفار فور وصوله بدوره الإصلاحي، وتوعية الناس بأمور دينهم ودنياهم، تمامًا كما فعل من قبل مُصلح اليمن الكبير الشيخ أحمد بن علوان، والذي تأثر به بطلنا الثائر أعظم تأثير، وابتنى– عام وصوله – لأجل ذلك مسجدًا، وزاوية، فيما ظل منزله العامر مفتوحًا للرعية المُتخاصمين، الذين ارتضوا به حكمًا دون سواه(٢٧).

كما عمل الفقيه العائد على استصلاح بعض الأراضي، وتوزيعها على الرعايا المُعدمين، وعن ذلك كتب عبدالله باذيب قائلًا: «استطاع حميد الدين أنْ يكسب قلوب أهل المقاطرة، وأنْ يقنعهم بتسليمه ما في حوزتهم من بصائر، وهي حجج ملكية الأرض، فأحرقها، وجعل الأرض ملكية جماعية لهم، يوزع محصولها بينهم بالتساوي، بقدر حاجة كل فرد»(٢٨).

حين وجد الفقيه الخزفار أنَّ عُمال الإمام يأخذون على القات ضريبتين، تصدى لذلك التصرف الشائن بقوة، وحرض من فوره المُزارعين على عدم الدَفع، وكتب إلى أمير تعز علي الوزير مُعاتبًا ومُلحًا بـ «أن ضريبة واحدة تكفي».

تحريض، ولكنه أسعد الإنامبين، وصارت الفُرصة مواتية للقضاء على هذا الثائر وللأبد، دمروا المسجد والزاوية ١٩٢٨م، وذلك بعد مُواجهات محدودة أسفرت عن قتل ثلاثة مواطنين، وعسكري واحد، ألزموا الضحايا بدفع دية الأخير، واقتادوا الفقيه الخزفار صوب مدينة تعز، فيما فرَّ أغلب أقربائه وتلامذته إلى عدن.

وفي تعز، وجه الأمير علي الوزير بحبس الفقيه الثائر في دار النصر (صهلة)، وفي السجن أثر الفقيه حميد الدين الخزفار في أصحابه الجدد، ليتسلل فكره ومنهجه مع خروجهم الواحد تلو الآخر، مُتجاوزًا جبل صبر إلى مناطق عديدة، ليخرج بعد خمس سنوات وقد

(٢٦) أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر للهجرة سيرة أمير المؤمنين الإمام المتوكل على الله يحيى بن حميد الدين، محمد بن محمد بن يحيى زبارة، ج٣، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ط١، ١٣٦٩هـ، ص١٥٨، الثقافية، مصدر سابق.

(٢٧) فنون الأدب الشعبي في اليمن، عبالله البردوني، بدون تاريخ، ص ٧١ - ٧٦ / الثقافية، مصدر سابق.

(٢٨) معالم تاريخ اليمن المعاصر، المسعودي، ص ١٥١.

تضاعف مُحبيه، وتكاثر مُريديه، وجابت شهرته الآفاق[٢٩].

الطغاة وعلى مدى التاريخ يَعملون على تَحسين صورهم بتقريب الشخصيات الاعتبارية ذات الحضور الشعبي منهم، وتكليفهم بمناصب ظاهرها خدمة الرعية، وباطنها إضفاء الشرعية على نظام حكمهم، وقد حاول الأئمة كسب الفقيه حميد الدين الخزفار إلى صفهم، وعرضوا عليه بالمراسلة إدارة أوقاف المقاطرة، إلا أنَّه اقتدى بأبي حنيفة النعمان، ورفض ذلك المنصب، بعد رفضهم شروطه؛ الأمر الذي أغضبهم، فأطلقوا عليه لقب (حميد الديك)، وشنعوا عليه أعظم تشنيع، واتهموه بالزندقة والجنون.

عاد الفقيه الخزفار بعد ذلك لممارسة دوره الإصلاحي، ولكن بحذر شديد؛ كون عيون الإماميين تترصد خطاه، أوعزوا لعملائهم اتهامه بتحريف الدين، وتهديد أمن المجتمع، ثم طاردوه من منطقة إلى أخرى، ليقع في الأخير بين أيديهم ١٩٣٧م، بعد أنْ خسر أحد أفضل مُريديه، وكانت نهايته تماما كنهاية أبي حنيفة.

أسوأ لحظات عُمر الفقيه حميد الدين الخزفار آخرها، سُجلت فُصولها الكئيبة في دهاليز القلعة بصنعاء، السجن الذي نفاه الإماميون إليه؛ لاعتقادهم أنْ اختلاف المذهب وبُعد المَوطن سيجعل تأثيره محدود، ولن يتكرر ما حدث معهم بتعز، بصعوبة استطاع الفقيه الثائر ترويض محيطه الاجتماعي الجديد، وبفطنته كسب ثقة الأغلبية، وكان من أبرز رفقائه الشيخ صالح المقالح، والد الشاعر عبد العزيز المقالح، وسيطه عند الإمام يحيى فيما بعد، إلا أنَّ ملك الموت كان أفتك وأسرع.

ودع الفقيه حميد الدين الخزفار الناس والحياة يوم ٢٠ إبريل ١٩٤٢م، عن ٦٤ عامًا، وظلت سيرته الطيبة على ألسن محبيه، يلهجون بذكره وكراماته على الدوام، ويثنون على عطائه وتضحياته كيدًا للطغاة الحكام، الذين عملوا على تشويه سمعته، واحتقار نضاله، وختموا ذلك باتهامه بالشيوعية، ولنا أنْ نتخيل روحه ترفرف هناك في الجنة التي طالما تغنى بها في أشعاره، حيث قال:

تزحزح يا فتى فالسعي غالي ... وشمر واجتهد هيا تلفلف
تحرك وارتقي نحو المعالي ... وسابق سوف يندم من تخلف
مقامات العلى فيها المجالي ... فيا سعد الذي فيها ترفرف
جنان الوصل فلا قيل وقال ... سوى العشق الغزير هيا تحفحف[٣٠]

(٢٩) صحيفة (الثقافية)، العدد ٢١٠، ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٣م، نقلاً من الباحث عبدالعزيز سلطان المنصوب أوردها فيما بعد في كتاب (الرسائل) للشيخ حميد الدين.
(٣٠) صحيفة (الثقافية)، مصدر سابق، مجلة (اليمن الجديد)، مصدر سابق.

جمعية المشايخ

كان لسقوط قلعة المقاطرة سبتمبر ١٩٢١م، والتنكيل بسكان تلك الناحية أثره البالغ في تنامي ردة فعل الغضب الشعبي تجاه السلطات الإمامية الغاشمة؛ بل أنَّ بعض المشايخ – ممن ساهموا في ذلك السقوط بطريقة مُباشرة أو غير مُباشرة – سيطرت عليهم عقدة الذنب، وبدأوا يفكرون جديًا في استقلال تعز، وإب، وخططوا في أواخر فبراير من العام ١٩٢٣م لاغتيال أمير تعز علي الوزير، إلا أنَّ مُحاولتهم باءت بالفشل؛ بفعل الجواسيس الذين رافقوا تحركاتهم خطوة خطوة.

وقيل أنَّ أحمد بن علي باشا المُتوكل– حاكم تعز السابق– أرسل إلى علي الوزير مُحذرًا بـ «إنَّ»، وأنَّ الأخير فهم أنّ المغزى قوله تعالى في سورة الحجرات: «إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ»، فاحتاط للأمر، واجتهد في كشف خيوط المُؤامرة حتى أخرها، وعن ذلك الباشا قال المُؤرخ المجاهد – ناقل هذه القصة – أنَّه «كان من الحذر إلى الحد الذي يصعب معه أنْ يمسك أحد ما عليه حجة، وأنَّه كان دائمًا يلعب على جميع الحبال، ومحل ثقة كل الأطراف في كل معمعة أو مناورة»(٣١).

كان الشيخ عبدالوهاب نعمان المُتبني الرئيس لتلك الحركة، وقائدها الفعلي، وقد اتهمته السلطات الإمامية حينها بدعمه لثوار المقاطرة، وبأنَّه استغل تذمر العامة من عملية إسقاطها، فأظهر طموحه السياسي بحكم قضاء الحجرية، وبأنَّه عزز ذلك بعقده اتفاقيات صداقة مع سلاطين الجنوب، وبتواصله المُستمر مع عدد من مشايخ تعز، وإب، لحثهم على التخلص من علي الوزير، وإعلان الاستقلال(٣٢).

من جهته أكد المناضل قاسم غالب أحمد أنَّ الشيخ عبدالوهاب نعمان، والشيخ حمود عبدالرب، والشيخ عبدالله يحيى الصبري، والشيخ أحمد بن حسن أسسوا حينها أول كيان مُعارض لحكم الإمامة – أسموه بـ (جمعية المشايخ)، وقال قاسم عنها بأنَّها أول جمعية قالت كلمة الحق، وأنكرت الظلم(٣٣).

لم يشر الأستاذ أحمد محمد نعمان ورفيق دربه القاضي محمد محمود الزبيري إلى ذلك، وجاء في رسالتهما التي بعثاها – فيما بعد – إلى المناضل عبدالله بن علي الحكيمي: «وقد هربنا نحن إلى مصر خوفًا من صولة الأمير– يقصدان علي الوزير– في ذلك الحين، وعداه الذي

(٣١) كتيبة الحكمة، مطهر، ج٢، ص٣٨٢-٣٨٣، هجر العلم، إسماعيل الأكوع، ص١٨٩، معالم تاريخ اليمن المعاصر، المسعودي، ص١٥٠-١٥١، غصن نضير، المجاهد، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٣٢) حياة الأمير، الوزير، ص٧١، اليمن الجمهوري، البردوني، ص١١٢، معالم تاريخ اليمن المعاصر، المسعودي، ص١٥١، ثمانون عامًا، بعكر، ص٢٦.

(٣٣) رسالة من الجحيم، غالب قاسم أحمد، عدن، ١٩٥٨م، ص١٠.

نصبه لبني نعمان، رغم إخلاصهم له ولحكومة الإمام، غير أنَّه دخله الحسد عندما كان ينظر ما لهم من مكانة في قلوب الناس، وما هم عليه من رغد العيش، وطيب النعيم، خشي على نفسه أنَّ مكانتهم هذه قد تتحول يومًا إلى قلب الإمام، فيرفعه من تعز، ويودع إليهم إمارة تعز أو بلادهم الحجرية على الأقل، وكيف يمكنه تركها، وقد وجد فيها مرتعًا خصبًا لا يمكنه تركه..»[٣٤].

وفي المُقابل هناك من يرى– كعبدالله البردوني– بأنَّ الإمام يحيى هو من زرع الفتنة بين الشيخ عبدالوهاب نعمان، والأمير علي الوزير، ليكسر شوكة الأول، ويضعف شعبية الأخير. وقد وجه – أي الإمام يحيى– فعلاً بالقبض على الشيخ عبدالوهاب قبل مُحاولة الاغتيال الفاشلة؛ والسبب الاتهامات السابق ذكرها، والتي وصلت إليه من قبل جواسيسه في الحجرية، والذين كانوا – أصلًا– من بعض أبنائها.

الرواية الرسمية المُتوكلية لم تُؤكد ذلك أو تنفيه، قالت أنَّ علي الوزير استبقى الشيخ عبدالوهاب نعمان وعددًا من المشايخ بالقرب منه، ولم يأذن لهم بمغادرة مدينة تعز حتى يدفعوا ما عليهم من مُتأخرات زكوية، وأنَّ الأخيرين حين طالت مدة احتجازهم، خططوا لجريمتهم تلك، وعزموا على اغتيال أمير تعز بعد خروجه من صلاة الجمعة في جامع المُظفر، وأنَّهم حاولوا لذات الغرض شراء ذمم بعض العسكر، وأنَّه على ألسن هؤلاء افتضح أمرهم[٣٥].

أمام تلك الاستدلالات الماثلة، صارت الفرصة مواتية لعلي الوزير بأنْ يقضي على خصومه بضربة واحدة، وبالمكر والخديعة قبض عليهم جميعًا مارس ١٩٢٣هـ (رجب ١٣٤١هـ)، وكان عامل صبر الشيخ عبدالله يحيى الصبري– حسب رواية حفيده أمين حسن علي الضباب – أول الضحايا؛ كونه من سكان جبل صبر، ومنزله قريب من منطقة صهلة (دار النصر) مقر الأمير.

تمَّ بعد ذلك القبض على الشيخ عبد الوهاب نعمان، والشيخ حمود عبدالرب (عامل العدين)، والشيخ أحمد بن حسن علي باشا (من مشايخ العدين)، وعبدالملك حسن بشر، وعبدالله يحيى عبد الجليل، وبعضًا من إخوانه وأولاده، وعامل جبل رأس الجنيد عبدالله النور، وقد اتهم الأخير بأنَّه صاحب مشورة قتل الأمير بالسم بدلًا من الرصاص، وذكر المُحققون

(٣٤) ثمانون عامًا، بعكر، ص٢٦-٢٧.
(٣٥) كتيبة الحكمة، مطهر، ص٣٨٤، هجر العلم، إسماعيل الأكوع، ص٦٩١، اليمن الجمهوري، البردوني، ص١١١-١١٢-١١٣-١١٤، غصن نضير، المجاهد، ص٢٠٨.

أنَّهم وجدوا أداة الجريمة في متاعه [٣٦].

لحميد العواضي– حفيد الشيخ حمود عبدالرب – رواية مُتصلة، مفادها أنَّ جده عامل العدين حشد حينها الحشود إلى مشارف مدينة تعز، استعدادًا للحظة الحاسمة، لحظة اغتيال الأمير علي الوزير، إلا أنَّ الرياح أتت بما لا تشتهي سفنه، حميد أفاد أيضًا أنَّ جده كان قد تطير شرًا قبل خروجه ذاك، مُستدلًا بمهيد شعبي يؤكد ذلك، جاء نصه:

حمود عبدالرب تحسب واحتسب وقال يا نـاس أنـا نحسي رجـب

اقتيد المتهمون إلى صنعاء مُكبلين بالأغلال، في رحلة أستمرت ثمانية أيام، لاقوا فيها الكثير من الأهوال، أشنعها تقريع العساكر، وسباب العوام، وفي سمارة اعترض الشيخ محمد صالح قعشة موكبهم المهين، ورفض أن يمروا في بلده وهم على تلك الهيئة، وأقسم على ذلك، واستضافهم في منزله ليوم كامل، وهو أمرٌ أكده أمين حسن الضباب نقلًا عن الحاج محمد عبدالغفور الشهير بـ (الغفوري– جد الكاتب مروان الغفوري)، والذي رافق جده في رحلته تلك خطوة خطوة.

ويحفظ لنا الموروث التعزي غنائية حزينة صورت ذلك المشهد، جاء فيها:

في ليلة الاثنين قد شـدوا سـلاطين اليمن

حمـود عبدالرب وبن نعمـان وأحمد بن حسن

والرابع الفخري ضرب سيطه إلى بنـدر عـدن

وفي المُقابل تبارى شعراء الإمامة في مدح ذئبهم الأسود علي الوزير، وسارع أحدهم بالقول:

مـا زلت تخلب القلـوب بفطنة وقَفَتْ على سـرِّ الغيـوب المُبهمِ

عمـا نـواه الخارجون عن الهدى مـن كـل متسـم بـزي المُسلمِ

تـبًا لـرأي الـمـارقيـن فـإنـَّه رأي ابن ملجم في الإمام الأعظمِ

وجه الإمام يحيى بعد ذلك بالقبض على بيوت أولئك المشايخ، «والاحتياط بما فيها، ليكون من ذلك تدارك ما في ذممهم من أموال الله» – حد توصيف المُؤرخ عبدالكريم مطهر– وكتب أحد الأحرار الأوائل– يُرجح أنَّه أحمد محمد نعمان– مقالًا في جريدة (الشباب) المصرية، نقل فيه تفاصيل ذلك الجُرم الإمامي، جاء فيه: «ولما فرغ أمير اللواء من القضاء على هؤلاء بعث جنودًا وقوادًا إلى بيوتهم لأخذ جميع ما فيها حتى ملابس الأطفال، وأمر بإخراج نسائهم وأطفالهم مُجردين من كل شيء، وجعل البيوت ثكنات للجند، ونقل كل ما جل وقل، ولم يكتفوا بذلك؛ بل ظلوا ينقرون جدران البيوت ليخرجوا بقية الكنوز، ثم حفروا فناء

(٣٦) كتيبة الحكمة، مطهر، ص٣٨٣، حياة عالم وأمير، الأكوع، ص٤٠٨-٤١٤.

الدور، ولم يتحصلوا على شيء، وبعد هذا بعثوا في طلب من كان يخدم هؤلاء، وقد جاء بهم الجند إلى أمير تعز.. فأمر بتعذيبهم، والإغلاق عليهم بإصطبلات البهائم»[٣٧].

بعد هذه الحادثة كان الأمير علي الوزير شديد الحذر والقلق، ويترجم كل حركة وسكنة بحضوره على أنَّها تستهدفه، وبمُبالغة لا تطاق، وعاشت مدينة تعز – تبعاً لذلك – أسوأ أيامها، ودفعت – كما أفاد المُؤرخ المجاهد – ثمنًا باهضًا من استقرارها، أمام عنت العساكر، واستضافتهم الإجبارية في المنازل بغرض إرهاق الأهالي وإرهابهم[٣٨].

خلف جدران سجن القلعة المُوحش لقي سلاطين اليمن– كما أفاد عدد من المُؤرخين– حتفهم، تساقطوا فيه الواحد تلو الآخر، ولم ينجو من الموت سوى الشيخ عبدالوهاب نعمان، وذلك إلى حين، أبقاه الإمام يحيى تحت ناظريه، وعينه عاملًا لبني مطر.

الشيخ نور الدين محمد حسان هو الآخر لم يرحم أحمد يحيى حميد الدين– أمير تعز فيما بعد – كهولته، أرسله إلى سجن حجة ديسمبر ١٩٤٤م، وهناك لقي حتفه، وكانت نهايته تمامًا كنهايتهم[٣٩].

وفي رواية مُغايرة لما سبق، أفاد أمين حسن الضباب أنَّ الإمام يحيى أطلق سراح جميع المُعتقلين، وذلك بعد مرور سنتين من اعتقالهم ١٩٢٥م، وأنَّ جده الشيخ عبدالله يحيى الصبري فضل البقاء في صنعاء، واستأذن الإمام في أنْ يبتني لنفسه غُرفتين فوق سور غمدان، وأنَّه ظل فيهما حتى وفاته ١٩٣١م. أما نبيل نبيل عبدالرب – حفيد الشيخ حمود عبدالرب – فقد أفاد أنَّ جده توفي في السجن، وأنَّ السجانين رفضوا تسليم جثته لذويه.

وبالعودة إلى أخبار الذئب الأسود علي الوزير، فقد صار بعد تخلصه من أولئك المشايخ حاكمًا أوحدًا للواء تعز، بدت طموحاته الاستقلالية تتبدى، وكان فقط ينتظر وفاة الإمام يحيى ليعلن عن ذلك، فضحت وثائق بريطانية استعداداته تلك، وكشفت أنَّه صارحهم برغبته بتدريب وتسليح ١,٠٠٠ رجل صومالي ليكونوا تحت إمرته، وذلك عند حلول اللحظة المُنتظرة، إلا أنَّ الإنجليز الباحثين حينها عن رضا الإمام رفضوا مقترحه وبشدة.

وعنه قال المُؤرخ إسماعيل الأكوع: «وبقي علي الوزير واليًا على لواء تعز عشرين عامًا،

(٣٧) كتيبة الحكمة، مطهر، ص٣٨٤-٣٨٥، هجر العلم، إسماعيل الأكوع، ص١٩٠، ثمانون عامًا، بعكر، ص٢٨-٢٩، أهذا هو العدل في اليمن السعيد.. جلد وقهر وكي بالسياخ.. أمير لواء تعز ينتقم من المتهمين بالتآمر عليه انتقامًا لم يروه إلا تاريخ القرون الوسطى، جريدة (الشباب)، ١٦ ربيع الأول ١٣٥٧هـ، ١٦ مايو ١٩٣٨م (من أرشيف الدكتور عبدالودود مقشر).

(٣٨) غصن نضير، المجاهد، ص١٠٨، هجر العلم، إسماعيل الأكوع، ص١٩٠.

(٣٩) مذكرات الرئيس القاضي عبدالرحمن بن يحيى الإرياني، ج١، ط١، ٢٠١٣م، ص١٢٧.

جمع خلال حكمه ثروة طائلة من مصادر شتى، ووجوه مُختلفة، وعاش عيشة الملوك، حتى حسده الإمام يحيى نفسه»، ليقلب له الأخير بعد ذلك ظهر المجن، عزله من منصبه ١٩٣٨م، وشوه سمعته، ولم يسع ابن الوزير بعد ذلك سوى الرحيل صوب الحجاز، ثم ما لبث أنْ عاد من الأخيرة، مقر رحلته المؤقت، ولكنها كانت عودة خافتة، بعيدة عن مُتعة الحكم، ولِذة الإمارة.

ومن طريف ما يروى أنَّ الشيخ عبدالوهاب نعمان، والأمير علي الوزير التقيا قبل قيام ثورة فبراير ١٩٤٨م الدستورية في منزل الأخير، وأنَّ الضيف كان يُحدق بقوة في أثاث المنزل الصنعاني، وتحفه الثمينة والنادرة، الأمر الذي أشعر مضيفه بالحرج؛ لأنَّ معظم تلك الأثاث كانت من منهوبات داره العتيق في تربة ذبحان، وحين اقتيد الاثنان لساحة الإعدام، بعد فشل تلك الثورة، نُقل عن عبدالوهاب نعمان قوله: «لقد هانت على نفسي محنتي، ما دام آل حميد الدين، وآل الوزير قد نكبوا معًا، حتى يريح الله العباد والبلاد منهما».

وهو نفس الشعور، وذات التوجه الذي لازم ابن أخيه الأستاذ أحمد محمد النعمان الذي قال في كتابه (انهيار الرجعية) أنَّ أذكياء الشعب – يقصد بهم رجالات المُعارضة اليمنية المُستنيرين– استغلوا التنافس القائم بين أسرة حميد الدين، وأسرة الوزير، وسعوا إلى أنْ يضرب الطغيان بعضه ببعض، مثلما يضرب هو الشعب بعضه ببعض[٤٠].

(٤٠) هجر العلم، إسماعيل الأكوع، ص١٩٠-١٩١-١٩٢-٦٩١-٦٩٢، رسالة من الجحيم، غالب، ص١٣، اليمن الجمهوري، البردوني، ص١١٣-١١٤.